الباب الثالث

في تفسير آية:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

اعلم، وهب لك الله عِلم أسمائه، وهداك إلى طرق مرضاته وسبل رضائه، أن الاسم مشتق من الوسم الذي هو أثرُ الكَيِّ في اللسان العربية، يقال: "اتّسمَ الرجلُ" إذا جعَل لنفسه سِمةً يُعَرف بها ويُميَّز بها عند العامة، ومِنه: سَمْتُ البعيرِ ووِسامُه عند أهل اللسان، وهو ما وُسِمَ به البعير من ضُروب الصور ليُعِين للعرفان. ومنه ما يقال: إني توسّمتُ فيه الخيرَ وما رأيت الضَير، أي تفرّستُ فما رأيت سِمةَ شرٍّ في محيّاه، ولا أثرَ خبثٍ في مَحياه. ومنه الوَسْمِيّ الذي هو أوّلُ مطر من أمطار الربيع، لأنه يَسِمَ الأرضَ إذا نزل كالينابيع، ويقال: "أرض موسومة" إذا أصابها الوسميّ في إبّانه، وسكّن قلوب الكُفّار بجريانه. ومنه موسم الحج والسوق وجميع مواسم الاجتماع، لأنها معالم يُجتمع إليها لنوعِ غرض من الأنواع. ومنه المِيسَم الذي يُطلق على الحسن والجمال، ويُستعمل في نساءٍ ذات ملاحة في أكثر الأحوال.

وقد ثبت مِن تتبّع كلام العرب ودواوينهم، أنهم كانوا لا يستعملون هذا اللفظ كثيرًا إلا في موارد الخير من دنياهم ودينهم.

وأنت تعلم أن اسم الشيء عند العامة ما يُعرَف به ذلك الشيءُ، وأما عند الخواص وأهل المعرفة فالاسم لأصل الحقيقة الفَيْءُ، بل لا شكّ أن الأسماء المنسوبة إلى المسمَّيات من الحضرة الأحدية، قد نزلت منها منـــزلةَ الصُوَر النوعيّة، وصارت كوُكْناتٍ لطيورِ المعاني والعلوم الحِكمية. وكذلك اسمُ الله والرحمن والرحيم في هذه الآية المباركة، فإن كل واحد منها يدل على خصائصه وهويّته المكتومة.

والله اسمٌ للذات الإلهية الجامعة لجميع أنواع الكمال، والرحمنُ والرحيم يدلاّن على تحقُّق هاتين الصفتين لهذا الاسم المستجمِع لكل نوع الجمال والجلال.

ثم للرحمن معنى خاص يختص به ولا يوجد في الرحيم، وهو أنه مُفيضٌ لوجود الإنسان وغيره من الحيوانات بإذن الله الكريم، بحسب ما اقتضى الحِكَمُ الإلهية من القديم، وبحسب تحمُّلِ القوابل لا بحسب تسوية التقسيم. وليس في هذه الصفة الرحمانية دخلُ كسبٍ وعملٍ وسعيٍ من القوى الإنسانية أو الحيوانية، بل هي مِنّةٌ من الله خاصّةٌ ما سبقها عملُ عامل، ورحمةٌ من لدنه عامّةٌ ما مسَّها أثرُ سعيٍ من ناقصٍ أو كامل. فالحاصل أن فيضان الصفة الرحمانية ليس هو نتيجة

عملٍ ولا ثمرة استحقاق، بل هو فضل من الله مِن غير إطاعة أو شِقاق. وينْزل هذا الفيض دائما بمشيّة من الله وإرادة، مِن غير شرطِ إطاعة وعبادة وتُقاة وزهادة. وكان بناءُ هذا الفيض قبْلَ وجود الخليقة وقبل أعمالهم، وقبل جهدهم وقبل سؤالهم، فلأجل ذلك توجد آثار هذا الفيض قبل آثار وجود الإنسان والحيوان، وإنْ كان ساريًا في جميع مراتب الوجود والزمان والمكان والطاعة والعصيان. ألا ترى أن رحمانية الله تعالى وسِعت الصالحين والظالمين، وترى قمره وشمسه يطلُعان على الطائعين والعاصين، وأنه أعطى كلَّ شيء خَلْقَه وكفَل أمرَ كلِّهم أجمعين. وما من دابّة إلا على الله رزقها ولو كان في السماوات أو في الأرضين، وأنه خلَق لهم الأشجار وأخرج منها الثمار والزهر والرياحين. وإنها رحمة هيّأها الله للنفوس قبل أن يبرَأها وإن فيها تذكرة للمتّقين. وقد أعطى هذه النعم مِن غير العمل ومن غير الاستحقاق، من الله الراحم الخلاّق. ومنها نعماء أخرى من حضرة الكبرياء، وهي خارجة من الإحصاء، كمِثل خلقِ أسباب الصحة وأنواع الحيل والدواء لكل نوع من الداء، وإرسالِ الرسل وإنزال الكتب على الأنبياء. وهذه كلها رحمانية من ربنا أرحم الرحماء، وفضلٌ بحتٌ ليس مِن عمل عامل ولا من التضرّع والدعاء.

وأما الرحيمية فهي فيضٌ أخصُّ من فيوض الصفة الرحمانية، ومخصوصة بتكميل النوع البشري وإكمال الخلقة الإنسانية، ولكن بشرط السعي والعمل الصالح وتركِ الجذبات النفسانية، بل لا تنْزل هذه الرحمة حقَّ نزولها إلا بعد الجهد البليغ في الأعمال، وبعد تزكية النفس وتكميل الإخلاص بإخراج بقايا الرياء وتطهير البال، وبعد إيثار الموت لابتغاء مرضات الله ذي الجلال. فطوبى لمن أصابه حظٌّ من هذه النِعم، بل هو الإنسان وغيرُه كالنَعم.

وههنا سؤالٌ عُضال نكتبه في الكتاب مع الجواب، ليفكّر فيه من كان من أولي الألباب، وهو أن الله اختار مِن جميع صفاته صفتَي الرحمن والرحيم في البسملة، وما ذكَر صفة أخرى في هذه الآية، مع أن اسمه الأعظم يستحق جميعَ ما هو من الصفات الكاملة، كما هي مذكورة في الصحف المطهّرة، ثم إن كثرة الصفات تستلزم كثرة البركات عند التلاوة؛ فالبسملة أحقُّ وأَولى بهذا المقام والمرتبة، وقد نُدِبَ لها عند كل أمرٍ ذي بال كما جاء في الأحاديث النبوية، وإنها أكثرُ وِرْدًا على ألسن أهل الملّة، وأكثرُ تكرارًا في كتاب الله ذي العزّة. فبأيّ حكمة ومصلحة لم يُكتَب صفاتٌ أخرى مع هذه الآية المتبرّكة؟

فالجواب أن الله أراد في هذا المقام، أن يذكر مع اسمه الأعظم صفتين هما خلاصة جميع صفاته العظيمة على الوجه التام، وهما الرحمن والرحيم، كما يهدي إليه العقل السليم. فإن الله تجلّى على هذا العالَم تارة بالمحبوبية ومرة بالمُحِبّية، وجعل هاتين الصفتين ضياءً ينْزل من شمس الربوبيّة على أرض العبوديّة. فقد يكون الرب محبوبًا والعبدُ مُحِبًّا لذلك المحبوب، وقد يكون العبد محبوبًا والربُّ مُحِبًّا له وجاعِلَه كالمطلوب. ولا شك أن الفطرة الإنسانية التي فُطرت على المحبّة والخُلّة ولوعة البال، تقتضي أن يكون لها محبوبًا يجذبها إلى وجهه بتجلّيات الجمال والنعم والنوال، وأن يكون له مُحِبًّا مواسيًا يتداركُ عند الأهوال وتشتُّت الأحوال، ويحفظها مِن ضيعة الأعمال، ويوصلها إلى الآمال. فأراد الله أن يعطيها ما اقتضتْها ويُتمّ عليها نعمه بجوده العميم، فتجلّى عليها بصفتيه الرحمن والرحيم⊙. ولا

⊙ الحاشية: قد عرفتَ أن الله بصفة الرحمن يُنزِل على كل عبد من الإنسان والحيوان والكافر وأهل الإيمان أنواعَ الإحسان والامتنان، بغير عمل يجعلهم مستحقين في حضرة الديّان، إذ لا شك أن الإحسان على هذا المنوال، يجعل المحسِن محبوبًا في الحال، فثبت أن الإفاضة على الطريقة الرحمانية، يُظهِر في أعين المستفيضين شأنَ المحبوبيّة، وأمّا صفة الرحيمية، فقد ألزمتْ نفسها شأنَ المُحِبّية، فإن الله لا تتجلى● على أحدٍ بهذا الفيضان إلا بعد أن يُحبّه ويرضى به قولاً وفعلاً من أهل الإيمان. منه.

● *سهو، والصحيح: يتجلّى. (اللجنة).*

ريب أن هاتين الصفتين هما الوُصلة بين الربوبية والعبودية، وبهما يتمّ دائرةُ السلوك والمعارف الإنسانية، فكلّ صفةٍ بعدهما داخلة في أنوارهما، وقطرة من بحارهما.

ثم إن ذات الله تعالى كما اقتضت لنفسها أن تكون لنوع الإنسان محبوبةً ومُحِبّة، كذلك اقتضتْ لعباده الكُمّل أن يكونوا لبني نوعهم كمثلِ ذاته خُلُقًا وسيرةً، ويجعلوا هاتين الصفتين لأنفسهم لباسًا وكسوةً، ليتخلّق العبوديةُ بأخلاق الربوبية، ولا يبقى نقص في النشأة الإنسانية. فخلَق النبيين والمرسلين، فجعل بعضَهم مظهرَ صفتِه الرحمن وبعضَهم مظهرَ صفته الرحيم، ليكونوا محبوبين ومُحِبّين ويعاشروا بالتحابب بفضله العظيم، فأعطى بعضهم حظًّا وافرًا من صفة المحبوبية، وبعضًا آخر حظًّا كثيرًا من صفة المُحِبيّة، وكذلك أراد بفضله العميم، وجُودِه القديم. ولما جاء زمن خاتم النبيين، وسيدنا محمد سيد المرسلين، أراد هو سبحانه أن يجمع هاتين الصفتين في نفسٍ واحدةٍ، فجمعهما في نفسه عليه ألفُ ألفِ صلاةٍ وتحيّة، فلذلك ذكر تخصيصًا صفةَ المحبوبية والمحبيّة على رأس هذه السورة، ليكون إشارةً إلى هذه الإرادة، وسمّى نبينا محمّدًا وأحمد كما سمّى نفسه الرحمن والرحيم في هذه الآية، فهذه إشارة إلى أنه لا جامِعَ لهما على الطريقة الظِلّية إلا وجودُ سيّدِنا خيرِ البريّة.

وقد عرفتَ أن هاتين الصفتين أكبر الصفات من صفات الحضرة الأحدية، بل هما لُبُّ اللُباب وحقيقة الحقائق لجميع أسمائه الصفاتية، وهما معيارُ كمالِ كلِّ مَن استكملَ وتخلَّقَ بالأخلاق الإلهية، وما أُعطيَ نصيبًا كاملاً منهما إلا نبيُّنا خاتم سلسلة النبوّة، فإنّه أُعطيَ اسمين كمثل هاتين الصفتين: أوّلهما محمد والثاني أحمد، من فضل رب الكونين. أما محمد فقد ارتدى رداء صفة الرحمن، وتجلّى في حُلل الجلال والمحبوبية، وحُمِّدَ لبرٍّ منه والإحسان. وأما أحمد فتجلّى في حُلّة الرحيمية والمُحِبّية والجمالية، فضلاً من الله الذي يتولى المؤمنين بالعون والنصرة. فصار اسما نبيِّنا بحذاءِ صفتَي ربّنا المنّان، كصُورٍ منعكسةٍ تُظهِرها مِرآتان متقابلتان.

وتفصيل ذلك أن حقيقة صفة الرحمانية عند أهل العرفان هي إفاضة الخير لكل ذي روح من الإنسان وغير الإنسان، مِن غيرِ عملٍ سابق بل خالصًا على سبيل الامتنان. ولا شك ولا خلاف أن مثل هذه المنّة الخالصة، التي ليست جزاءَ عملِ عامل من البريّة، هي تجذب قلوب المؤمنين إلى الثناء والمدح والمحمدة، فيحمدون المحسنَ ويثنون عليه بخلوص القلوب وصحة النيّة، فيكون الرحمن محمَّدًا يقينًا مِن غير وهمٍ يجرّ إلى الريبة. فإن المنعِم الذي يحسن إلى الناس مِن غير حقّ بأنواع النعمة، يحمده كلٌّ من أُنعمَ عليه، وهذا من خواص

النشأة الإنسانية. ثم إذا كمُل الحمد بكمال الإنعام، جذَب ذلك إلى الحب التام، فيكون المحسِن محمَّدًا ومحبوبًا في أعين المحبِّين. فهذا مآلُ صفة الرحمن، ففكِّرْ كالعاقلين. وقد ظهر من هذا المقام لكل من له عرفان، أن الرحمن محمَّد وأن محمَّدًا رحمن، ولا شك أن مآلهما واحدٌ، وقد جهِل الحقَّ مَن هو جاحدٌ.

وأما حقيقة صفة الرحيمية، وما أُخفيَ فيها من الكيفية الروحانية، فهي إفاضةُ إنعامٍ وخيرٍ، على عملٍ مِن أهل مسجدٍ لا مِن أهل دَيْرٍ، وتكميلُ عمل العاملين المخلصين، وجبرُ نقصانهم كالمتلافين والمعِينين والناصرين. ولا شك أن هذه الإفاضة في حُكم الحمد من الله الرحيم، فإنه لا يُنْزِل هذه الرحمة على عاملٍ إلا بعد ما حمده على نهجه القويم، ورضيَ به عملاً ورآه مستحِقًّا للفضل العميم. ألا ترى أنه لا يقبَل عَمَلَ الكافرين والمشركين والمرائين والمتكبّرين، بل يُحبِط أعمالهم ولا يهديهم إليه ولا ينصرهم، بل يتركهم كالمخذولين. فلا شك أنه لا يتوب إلى أحدٍ بالرحيمية ولا يكمِّل عمله بنصرة منه والإعانة، إلا بعد ما رضيَ به فعلاً وحمِده حمدًا يستلزم نزولَ الرحمة. ثم إذا كمُل الحمد من الله بكمال أعمال المخلصين، فيكون الله أحمَدَ والعبدُ محمَّدًا، فسبحان الله أوّلِ المحمَّدين

والأحمدين. وعند ذلك يكون العبد المخلص في العمل محبوبًا في الحضرة، فإن الله يحمَده مِن عرشه، وهو لا يحمَد أحدًا إلا بعد المحبّة.

فحاصل الكلام، أن كمال الرحمانية يجعل الله محمَّدًا ومحبوبًا، ويجعل العبدَ أحمدَ ومُحِبًّا يستقري مطلوبًا، وكمال الرحيمية يجعل اللهَ أحمدَ ومُحِبًّا، ويجعل العبدَ محمَّدًا وحِبًّا. وستعرف من هذا المقام شأنَ نبيِّنا الإمام الهُمام، فإن الله سمّاه محمَّدًا وأحمدَ، وما سمّى بهما عيسى ولا كليمًا، وأشركَه في صفتيه الرحمن والرحيم بما كان فضله عليه عظيمًا. وما ذكر هاتين الصفتين في البسملة إلا ليعرف الناس أنهما لله كالاسم الأعظم وللنبي من حضرته كالخِلْعة، فسمّاه الله محمَّدًا إشارةً إلى ما فيه من صفة المحبوبية، وسمّاه أحمدَ إيماءً إلى ما فيه من صفة المُحِبّية. أمّا محمَّد فلأجل أن رجلاً لا يحمَده الحامدون حمدًا كثيرًا إلا بعد أن يكون ذلك الرجل محبوبا، وأمّا أحمدُ فلأجل أن حامدًا لا يحمَد أحدًا بحمدٍ كاثِرٍ إلا الذي يُحبّه ويجعله مطلوبًا. فلا شك أن اسم محمَّد يوجد فيه معنى المحبوبيّة بدلالة الالتزام، وكذلك يوجد في اسم أحمدَ معنى المُحِبّية من الله ذي الأفضال والإنعام. ولا ريب أن نبيّنا سُمّيَ محمَّدًا لِما أراد الله أن يجعله محبوبًا في أعينه وأعين الصالحين. وكذلك سمّاه أحمدَ لِما أراد سبحانه أن يجعله مُحِبَّ ذاتِه ومُحِبَّ المؤمنين المسلمين. فهو محمَّد بشأن وأحمدُ بشأن.

واختصّ أحدُ هذين الاسمين بزمان والآخر بزمان، وقد أشار إليه سبحانه في قوله: ﴿دَنَى فَتَدَلَّى﴾، وفي: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

ثم لّما كان يُظَنُّ أن اختصاص هذا النبي المُطاع السَجّاد بهذه المحامد مِن رب العباد، يجُرّ إلى الشرك كما عُبِدَ عيسى لهذا الاعتقاد، أراد الله أن يُورِثهما الأُمّةَ المرحومة على الطريقة الظِلِّيّة، ليكونا للأُمّة كالبركات المتعدّية، وليزول وَهْمُ اشتراكِ عبدٍ خاصٍ في الصفات الإلهية. فجعَل الصحابةَ ومَن تبِعهم مَظْهَرَ اسمِ محمَّد بالشؤون الرحمانية الجلالية، وجعل لهم غلبةً ونصَرهم بالعنايات المتوالية. وجعل المسيح الموعود مظهرَ اسمِ أحمدَ وبعثه بالشؤون الرحيمية الجمالية، وكتب في قلبه الرحمة والتحنّن وهذّبه بالأخلاق الفاضلة العالية.

فذلك هو المهدي المعهود الذي فيه يختصمون، وقد رأوا الآيات ثم لا يهتدون، ويصرّون على الباطل وإلى الحق لا يرجعون. وذلك هو المسيح الموعود ولكنهم لا يعرفون، وينظرون إليه وهم لا يبصرون. فإن اسم عيسى واسم أحمدَ متّحدان في الهويّة، ومتوافقان في الطبيعة، ويدلاّن على الجمال وتركِ القتال مِن حيث الكيفية. وأمّا اسم محمد فهو اسم القهر والجلال، وكلاهما للرحمن والرحيم كالأظلال. ألا ترى أن اسم الرحمن الذي هو منبع للحقيقة المحمدية، يقتضي الجلالَ كما يقتضي شأنَ المحبوبية؟ ومِن رحمانيته تعالى أنه

سخّر كلَّ حيوان للإنسان، من البقر والمعز والجِمال والبغال والضأن، وأنه أهرقَ دماءً كثيرة لحفظ نفس الإنسان، وما هو إلا أمرٌ جلالي ونتيجة رحمانية الرحمن. فثبت أن الرحمانية يقتضي القهرَ والجلال، ومع ذلك هو من المحبوب لطفٌ لمن أراد له النوال. وكم من دُود المياه والأهوية تُقتَل للإنسان، وكم من الأنعام تُذبَح للناس إنعامًا من الرحمن.

فخلاصة الكلام.. أن الصحابة كانوا مظاهرَ للحقيقة المحمّدية الجلالية، ولذلك قتلوا قومًا كانوا كالسباع ونَعَمِ البادية، ليخلّصوا قومًا آخرين من سجن الضلالة والغواية، ويجرّوهم إلى الصلاح والهداية. وقد عرفتَ أن الحقيقة المحمدية هو مظهر الحقيقة الرحمانية، ولا منافاةَ بين الجلال وهذه الصفة الإحسانية، بل الرحمانية مظهرٌ تامٌّ للجلال والسطوة الربّانية. وهل حقيقة الرحمانية إلا قتل الذي هو أدنى للذي هو أعلى؟ وكذلك جرت عادة الرحمن مُذْ خلق الإنسانَ وما وراءه من الوَرى. ألا ترى كيف تُقتَل دودُ جُرحِ الإبل لحفظِ نفوس الجِمال، وتُقتَل الجِمال لينتفع الناس من لحومها وجلودها، ويتّخذوا من أوبارها ثياب الزينة والجمال. وهذه كلها من الرحمانية لحفظِ سلسلة الإنسانية والحيوانية. فكما أن الرحمن محبوب كذلك هو مظهر الجلال، وكمثله اسمُ محمَّدٍ في هذا الكمال.

ثم لما ورِثَ الأصحاب اسمَ محمَّد من الله الوهّاب، وأظهروا جلال الله وقتلوا الظالمين كالأنعام والدوابّ، كذلك ورِث المسيح الموعود اسمَ أحمدَ الذي هو مظهر الرحيمية والجمال، واختار له اللهُ هذا الاسمَ ولمن تبِعه وصار له كالآل. فالمسيح الموعود مع جماعته مظهرٌ من الله لصفة الرحيمية والأحمدية، ليتمّ قولُه: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾●، ولا رَادَّ للإرادات الربانية، وليتمّ حقيقةُ المظاهر النبوية. وهذا هو وجهُ تخصيص صفة الرحمانية والرحيمية بالبسملة، ليدل على اسمَي محمَّدٍ وأحمدَ ومظاهرِهما الآتية، أعني الصحابة ومسيح الله الذي كان آتيًا في حُلل الرحيمية والأحمدية.

ثم نكرّر خلاصة الكلام في تفسير ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فاعلم أن اسم الله اسمٌ جامد لا يعلم معناه إلا الخبير العليم، وقد أخبر – عزّ اسمُه – بحقيقة هذا الاسم في هذه الآية، وأشار إلى أنه ذاتٌ متّصفة بالرحمانية والرحيمية، أي متصفة برحمةِ الامتنان ورحمةٍ مقيَّدةٍ بالحالة الإيمانية، وهاتان رحمتان كماءٍ أصفى وغذاءٍ أحلى من منبع الربوبية. وكل ما هو دونهما من صفات فهو كشُعَبٍ لهذه الصفات، والأصلُ رحمانية ورحيمية وهما مظهَرُ سِرِّ الذات. ثم أُعطِيَ منهما نصيبٌ كامل لنبيِّنا إمامِ النهج القويم، فجعل اسمه محمَّدًا

● الجمعة: ٤

ظِلَّ الرحمن، واسمه أحمدَ ظِلَّ الرحيم. والسرّ فيه أن الإنسان الكامل لا يكون كاملاً إلا بعد التخلّق بالأخلاق الإلهية وصفات الربوبية، وقد علِمتَ أن أمر الصفات كلها تؤول إلى الرحمتين اللتين سمّيناهما بالرحمانية والرحيمية. وعلِمتَ أن الرحمانية رحمةٌ مطلَقة على سبيل الامتنان، ويَرِدُ فيضانُها على كل مؤمن وكافر بل كل نوع الحيوان، وأمّا الرحيمية فهي رحمةٌ وجوبية من الله أحسنِ الخالقين، وجبتْ للمؤمنين خاصة من دون حيوانات أخرى والكافرين. فلزم أن يكون الإنسان الكامل.. أعني محمدًا.. مظهرَ هاتين الصفتين، فلذلك سُمّي محمَّدًا وأحمدَ من رب الكونَين، وقال الله في شأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فأشار الله في قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ وفي قوله: ﴿حَرِيصٌ﴾ إلى أنه – عليه السلام – مظهرُ صفته الرحمن* بفضله العظيم، لأنه رحمة للعالمين كلهم ولنوع الإنسان والحيوان وأهل الكفر والإيمان.

ثم قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فجعله رحمانًا ورحيمًا كما لا يخفى على الفهيم، وحمِده وعزا إليه خُلُقًا عظيمًا من التفخيم والتكريم، كما جاء في القرآن الكريم. وإنْ سألتَ ما خُلقه العظيم

* **الحاشية:** قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ *(الأنبياء:١٠٨)*، ولا يستقيم هذا المعنى إلا في الرحمانية، فإن الرحيمية يختص بعالمٍ واحدٍ من المؤمنين. منه.

فنقول إنه رحمن ورحيم، ومُنِحَ هو – عليه الصلاة – هذين النورَين وآدمُ بين الماء والطين، وكان هو نبيًّا وما كان لآدمَ أثرٌ من الوجود ولا من الأديم. وكان الله نورًا فقضى أن يخلق نورًا فخلق محمدًا الذي هو كدُرٍّ يتيم، وأشركَ اسمَيه في صفتَيه ففاق كلَّ مَن أتى اللهَ بقلب سليم، وإنهما يتلألآن في تعليم القرآن الحكيم. وإنّ نبيّنا مركَّبٌ مِن نورِ موسى ونورِ عيسى كما هو مركَّب من صفتَي ربنا الأعلى، فاقتضى التركيب أن يُعطى له هذا المقام الغريب، فلأجل ذلك سمّاه الله محمّدًا وأحمد، فإنه ورث نور الجلال والجمال وبه تفرّدَ، وإنه أُعطِيَ شأن المحبوبين وجَنان المحِبِّين، كما هو من صفتَي رب العالمين، فهو خير المحمودين وخير الحامدين. وأشركه الله في صفتيه، وأعطاه حظًّا كثيرًا من رحمتَيه، وسقاه من عينيه، وخلَقه بيديه، فصار كقارورة فيها راح، أو كمشكاة فيها مصباح. وكمِثل صفتَيه أنزلَ عليه الفرقان، وجمع فيه الجلال والجمال وركّب البيانَ، وجعله سلالةَ التوراة والإنجيل، ومرآةً لرؤية وجهه الجليل والجميل. ثم أعطى الأمّةَ نصيبًا من كأس هذا الكريم، وعلّمهم مِن أنفاس هذا المتعلّم من العليم، فشرِب بعضهم مِن عين اسمِ محمّد التي انفجرت من صفة الرحمانية، وبعضُهم اغترفوا مِن ينبوع اسمِ أحمدَ الذي اشتمل على الحقيقة الرحيمية. وكان قدرًا مقدّرًا من الابتداء ووعدًا

موقوتًا جاريًا على ألسُن الأنبياء، أنّ اسم أحمد لا تتجلى بتجلٍّ تامٍّ في أحدٍ من الوارثين إلا في المسيح الموعود الذي يأتي الله به عند طلوع يوم الدين وحشر المؤمنين، ويرى الله المسلمين كالضعفاء، والإسلامَ كصبيٍّ نُبِذَ بالعراء، فيفعل لهم أفعالاً من لدنه وينْزل لهم من السماء، فهناك تكون له السلطنةُ في الأرض كما هي في الأفلاك، وتهلك الأباطيلُ مِن غير ضرب الأعناق وتنقطع الأسباب كلها وترجع الأمور إلى مالِك الأملاك. وعدٌ من الله حقٌّ كمثلِ وعدٍ تمَّ في آخرِ زمنِ بني إسرائيل، إذ بُعث فيهم عيسى بن مريم فأشاع الدين مِن غير أن يقتل مَن عصى الرب الجليل. وكان في قدر الله العليّ العليم، أن يجعل آخِرَ هذه السلسلة كآخر خلفاءِ الكليم، فلأجل ذلك جعَل خاتمةَ أمرها مستغنيةً مِن نصر الناصرين، ومظهرًا لحقيقة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، كما يأتي تفسيره بعد حين.

ومِن تَتَمّةِ هذا الكلام أن نبيَّنا خيرَ الأنام، لـــمّا كان خاتمَ الأنبياء وأصفى الأصفياء، وأحبَّ الناس إلى حضرة الكبرياء، أراد الله سبحانه أن يجمع فيه صفتَيه العظيمتين على الطريقة الظِلّيّة، فوهب له اسمَ محمدٍ وأحمدَ ليكونا كالظِّلَّين للرحمانية والرحيمية، ولذلك أشار في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى أن العابد الكامل يُعطَى له صفاتُ ربّ العالمين، بعد أن يكون من العابدين الفانين. وقد علمتَ

أن كل كمال من كمالات الأخلاق الإلهية، منحصرٌ في كونه رحمانًا ورحيمًا ولذلك خَصَّهما الله بالبسملة. وعلمتَ أن اسم محمد وأحمد قد أُقيما مقامَ الرحمن والرحيم، وأودعهما كلَّ كمال كان مخفيًا في هاتين الصفتين من الله العليم الحكيم، فلا شك أن الله جعل هذين الاسمين ظلَّيْن لصفتيه، ومظهرين لسيرتيه، ليُرِيَ حقيقةَ الرحمانية والرحيمية في مرآة المحمدية والأحمدية. ثم لما كان كُمَّلُ أُمّتِه عليه السلام من أجزائه الروحانية وكالجوارح للحقيقة النبوية، أراد الله لإبقاء آثار هذا النبي المعصوم، أن يوّرثهم هذين الاسمين كما جعلهم ورثاء العلوم، فأدخل الصحابةَ تحت ظلّ اسمِ محمدٍ الذي هو مظهر الجلال، وأدخلَ المسيحَ الموعود تحت اسمِ أحمدَ الذي هو مظهر الجمال. وما وجد هؤلاء هذه الدولة إلا بالظِلّيّة، فإذنْ ما ثَمَّ شريكٌ على الحقيقة. وكان غرض الله مِن تقسيم هذين الاسمين، أن يفرّق بين الأمّة ويجعلهم فريقين، فجعل فريقًا منهم كمثل موسى مظهر الجلال، وهم صحابة النبي الذين تصدَّوا أنفسهم للقتال، وجعل فريقًا منهم كمثل عيسى مظهر الجمال، وجعل قلوبَهم ليّنةً وأودعَ السلمَ صدورَهم وأقامهم على أحسن الخصال، وهو المسيح الموعود والذين اتّبعوه من النساء والرجال، فتمّ ما قال موسى وما فاهَ بكلامٍ عيسى وتمّ وعدُ الربّ الفعّال. فإن موسى أخبرَ عن

صحبٍ كانوا مظهرَ اسمِ محمدٍ نبيِّنا المختار، وصوّرَ جلالَ الله القهّار بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، وإن عيسى أخبر عن ﴿آخَرِيْنَ مِنْهُمْ﴾ وعن إمام تلك الأبرار، أعني المسيحَ الذي هو مظهرُ أحمدَ الراحمِ الستّار، ومنبعُ جمال الله الرحيم الغفّار، بقوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ الذي هو مُعجِبُ الكُفّار*. وكل منهما أخبر بصفاتٍ تُناسب صفاتِه الذاتية، واختار جماعةً تُشابهُ أخلاقُهم أخلاقَه المرضية، فأشار موسى بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ إلى صحابةٍ أدركوا صحبةَ نبيّنا المختار، وأَرَوا شدّةً وغلظةً في المضمار، وأظهروا جلال الله بالسيف البتّار، وصاروا ظِلَّ اسمِ محمد رسول الله القهّار، عليه صلوات الله وأهل السماء وأهل الأرض من الأبرار والأخيار. وأشار عيسى بقوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾° إلى قومٍ ﴿آخَرِيْنَ مِنْهُمْ﴾

---

* *الكافر: الزارع. (المنجد) - (اللجنة).*

° **الحاشية:** اعلمْ يا طالبَ العرفان، أنه ما جاء في كتاب الله الفرقان أن الصحابة كانوا رحماء على أهل البغي والعدوان، وأما رُحْمُ بعضِهم على بعضٍ فلا يُخرِجهم من الجلالية، بل تزيد قوةَ الجلال كونَهم في صورة الوحدة، فإنهم كشخص واحدٍ عند الله، وكالجوارح لحضرة الرسالة. ولا يختلج في قلبٍ أنّ مَثل الزرع مشترَكٌ في التوراة والإنجيل، فإن هذا المَثل قد خُصّ بكتاب عيسى في التنزيل، ثم لا نجده في التوراة ونجده في الإنجيل بالتفصيل. ومن المعلوم أن القرّاء الكبار يقفون على قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ ولا يُلحِقون به هذا المَثل عند قراءة هذه الآيات، بل يخصّونه بالإنجيل يقينًا من

وإمامِهم المسيح، بل ذكَر اسمَه أحمدَ بالتصريح، وأشار بهذا المثل الذي جاء في القرآن المجيد إلى أن المسيح الموعود لا يظهر إلا كنباتٍ ليّنٍ لا كالشيء الغليظ الشديد.

ثم من عجائب القرآن الكريم أنه ذكر اسمَ أحمد حكايةً عن عيسى، وذكَر اسمَ محمد حكايةً عن موسى، ليعلم القارئ أن النبي الجلالي.. أعني موسى.. اختار اسمًا يشابهُ شأنَه، أعني محمدًا الذي هو اسم الجلال، وكذلك اختار عيسى اسمَ أحمد الذي هو اسم الجمال بما كان نبيًّا جماليًّا، وما أُعطِيَ له شيء من القهر والقتال. فحاصل الكلام أن كُلاًّ منهما أشار إلى مثيله التامّ، فاحفَظْ هذه النكتة فإنها تنجيك من الأوهام، وتكشف عن ساقَي الجلالِ والجمال، وتُرِي الحقيقة بعد رفع الفِدام. وإذا قبِلتَ هذا فدخلتَ في حفظ الله وكِلائه مِن كل دجّال، ونجوتَ من كل ضلال.

غير الشبهات، ولأجل ذلك كُتِبَ الوقفُ الجائز عليه في جميع المصاحف المتداولة، وإنْ كنتَ في شك فانظرْ إليها لزيادة المعرفة. منه.